# لطفي السيّد الإنسان

## عفاف لطفي السيّد

ولد احمد لطفي السيد قبل واحد وتسعين عاما في قرية برقين في اقليم الدقهلية . وقد اراده ابوه ، وكان عمدة ميسور الحال ، ان يصبح شيخا ازهريا ، فارساله وهو بعد في الرابعة الى الكتّاب ليدرس القرآن على الشيخة فاطمة . وما ان بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن عن غيب ، فكافأه والده بأن اهداه حصانا ــ وظلّ لطفي يحب الخيل طيلة حياته . وذات يوم جاء ادهم باشا مدير الدقهلية السابق ، لزيارة والد لطفي ، وأتي بلطفي ليستقبل الضيف الشهير ، واعجب ادهم باشا بذكائه ونصح والده ان يرسله الى مدارس الحكومة بدل الازهر . وهكذا التحق لطفي بالمدرسة الابتدائية في المنصورة ، ثم بالمدرسة الخديوية الثانوية في القاهرة .

واذ كان خجولا ، وخاصة للفرق بين لهجته القروية ولهجة ابناء المدينة ، فانه صرف معظم وقته في المطالعة . واحب الشعر وحفظ الكثير منه ، واعجب ببديع اللغة العربية وبيانها ، مما حمله على ان يكوّن لنفسه اسلوبا نثريا جليا خاصاً به . وقابل لطفي في المدرسة الخديوية الرجل الذي اصبح اقرب اصدقائه اليه، عبد العزيز فهمي ، وقامت بينهما صداقة استمرت طيلة حياتيهما . ودخل الاثنان معاً مدرسة الحقوق في العام ١٨٨٩ ، وتعرفا هناك على آخرين اصبحوا اصدقاء وزملاء لهما فيا بعد ، امثال عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي واحمد عبد الغفار .

وفي مدرسة الحقوق قابل لطفي ايضاً الشيخ محمد عبده ، وكان واحدا من ممتحنيه واصبح ناصحه وصديقه . وقد لفت لطفي انتباه الشيخ في اجابته الخطية على احد اسئلة الامتحان عن حقّ الحكومة في معاقبة المجرم . فقد كتب لطفي ان لا حق للحكومة في ان تعاقب المجرمين لان الحكومات انما اسست على القوة وليس على التعاقد ، والقوة لا

تمنح حقا . ولما اخبر لطفي اصحابه بمضمون اجابته على السؤال تنبأ له عبد الغفار بالسقوط وحذره من العاقبة السيئة لتفلسفه ولكنه اخطأ : فقد ابلغ الشيخ محمد عبده لطفي في الامتحان الشفهي انه نال اعلى درجة ، ليس ، كما قال، بسبب ثورته على الحكومة ولكن لجودة اسلوبه النثري . وقد شجعت هذه الملاحظة لطفي على ان يختار لنفسه مستقبلا صحافيا ، وكانت الصحافة قد استهوته منذ ان كان يترجم البرقيات « للمؤيد » . فاسس بالاشتراك مع صدقي وثروت وعبد الغفار « مجلة التشريع » المدرسية . وتعرّف ، بواسطة عماه الصحفي ، على اعظم صحافيي ذلك العهد . وكان من اغلى ذكرياته طلب عبدالله النديم منه ان يصحح له طبعات مجلة « الاستاذ » .

ذهب لطفي ، في سنته الثانية في الحقوق ، الى اسطنبول . وهناك قابل سعد زغلول الذي اخذه لمقابلة جمال الدين الافغاني . وتأثر الشاب بالافغاني ورجا سعدا ان يسمح له بزيارته كل يوم من ايام اقامته في اسطنبول . وسمح له ، وصرف لطفي ساعات عديدة سعيدة ومثمرة مع الرجل الكبير . وروى ، فيما بعد ، ان الافغاني علّمه ان بامكان الانسان ان يربي نفسه ان هو تعلم فحسب ان يحصي على نفسه كل كلمة يقولها وكل عمل يعمله ، لان تلك هي تربية الذات .

تخرّج لطفي من مدرسة الحقوق في السنة التالية ، وعين وكيل نيابة في المنيا . واذ كان صديقه عبد العزيز فهمي هناك اسس الاثنان معاً ، ومع بعض اصدقائهما ، جمعية سرية هدفها تحرير مصر من الاحتلال . وكم كانت دهشة لطفي عظيمة لما اتصل به مصطفى كامل يوماً وعرض عليه ان ينضم الى جمعية سرية يرئسها الخديوي عباس ولها اهداف جمعيته ذاتها . وكانت تلك الجمعية نواة الحزب الوطني . ولمدة سنة انتمى لطفي الى الحزب ولكنه اختلف مع كامل والخديوي وانسحب . وكان في خلال عضويته للجمعية قد ذهب الى سويسرة ليحصل على الجنسية السويسرية حتى يستطيع ان يبدأ حملة صحافية ضد الاحتلال تحت حماية الامتيازات الاجنبية . وقابل الشيخ عبده بالصدفة في اثناء اقامته بجنيف ، وذهبا معاً الى محاضرات الجامعة ، حيث كان عبده يجذب الانظار بلحيته المرسلة وبجبته وعمامته . وقامت بين الرجلين روابط وثيقة ، قوّاها ( لاشعوريا ) شبه الشيخ لاب احمد لطفي ( السيد باشا ابو علي ) شبهاً قوياً وغريباً لدرجة ان مكتبة لطفي في هليوبوليس

تحمل صورة كنت اظن دائما انها للشيخ محمد عبده الى ان علمت متأخرة انها في الواقع صورة جدّي .

استأنف لطفي عمله الحكومي السابق اثر عودته الى مصر . ولكنه كلما كان يرتفع في الدرجات الحكومية كان احتكاكه بالمسؤولين الانكليز يزداد ، ويزداد بالتالي اطلاعه على القيود التي كان الانكليز يفرضونها على الموظفين المصريين . شعر ان امكانات المصريين كانت تُخمد وتُعطّل . ولذلك ، وبسبب خلافه مع المدعي العام ، استقال في ١٩٠٥ ، ونوى ان ينزوي في قريته وان يصرف حياته في الزراعة ( وقد تأثر بتولستوي والروايات التي قرأها له ) ، الا ان عبد العزيز فهمي ، الذي استقال ايضاً من عمله الحكومي وعمل محاميا ، بدّل له فكره واغراه على ان يشاركه عمله . فعمل الاثنان معا ما ينيف على السنة ، وكان الدفاع عن المتهمين في دنشواي اشهر قضية ترافع لطفي بها في تلك الفترة . وقد قرر بعد ان انتهت المحاكمة ان يعود الى حبه الاول ، الصحافة . وفي العاشر من آذار ( مارس ) ١٩٠٧ صدر العدد الاول من « الجريدة » وكان لطفي يرئس تحريرها .

حملت صفحات الجريدة آراء لطفي في الانسان والسياسة والتعليم والسلوك البشري . وكان هدفها الرئيسي خلق وعي سياسي ناضج في مصر ، وعي آمن لطفي انه لا بد ان يؤدي الى تحرر سياسي من الحكم البريطاني ومن الاستبداد الخديوي . ولما كان لطفي تلميذا للشيخ محمد عبده، فقد شدد على اهمية المجتمع المصلَح اجتماعيا: فالاصلاح الاجتماعي هو السبيل الوحيد للاصلاح السياسي ، ولا واسطة اليه الا بالتعليم . وقد قال في خطاب له في ١٩٠٨ : « فان اردتم الاستقلال فحولوا السنتكم واقلامكم وشيئا من قواكم وقليلا من اموالكم الى التربية والتعليم العام فانه السبب الوحيد للاستقلال ولا شيء غيره » .

كان المجتمع المصري ينقصه الشيء الكثير . وكانت الهوة تنمو وتتسع بين التربية الجديدة الغربية النظام وبين التعليم الازهري التقليدي ، هوة هددت بالفتن والتناحر . وكانت غالبية الشعب امية تماما ، ولم تفعل الحكومة شيئا لتحسين الاوضاع . وعندما كان الوطنيون يطالبون بتأسيس مدارس جديدة كان كرومر يجيب ان الكتّاب هي جلّ ما تستطيع الحكومة تمويله ، واذا كان المصريون يريدون كثيرا من الثقافة فعليهم ان يدفعوا ثمنها . وكانت النتيجة ان تحولت مصر الى مجتمع منقسم على نفسه : مجتمع ليس بين عناصره

المختلفة روابط عامة ، بل يحتقر كل منها الآخر ويسيء الظن به . وازدادت الجرائم كظاهرة على هذا الانحلال . فان عرى الثقة بين الحاكم والمحكوم انحلت بفعل سني الاضطهاد والاحتلال الاجنبي ، حتى كان الشعب يسيء فهم القوانين التي تسنها الحكومة ، ويخرقها ، وكان الموظفون الصغار الذين قصد منهم ان يكونوا جسراً بين القوانين والشعب قد فقدوا الصلة مع الفلاح رغما عنهم بسبب ثقافتهم الغربية . رأى لطفي ان حل هذه المسألة هو في خلق ضمير جماعي يوحد المصريين في وعي عام لوحدتهم كشعب وكمجتمع له اهدافه الواحدة ومصالحه المشتركة . ورأى ان هذا هو السبيل لاصلاح الصفات القومية لتكوّن مجتمعاً حرّاً ذا كرامة . « يجب علينا ان نروّض انفسنا من اليوم على الاخلاق الدستورية » . وهو مجتمع يعرف كل انسان فيه حقوقه وواجباته ، ولا يتهرب من مسؤولياته بكلمة « ما عليش » التي كانت ، عند لطفي ، شراً محرما .

التعليم هو الخطوة الاولى نحو الاصلاح . ولكي يصبح في مصر نخبة مثقفة فانها تحتاج اولا الى جامعة . كان مشروع الجامعة امنية عزيزة على قلوب الوطنيين ، ومع انهم اختلفوا على الوسائل السياسية لتحرير مصر فانهم اتفقوا على الحاجة للجامعة . قال لطفي : « اقول ان حركة الجامعة ونهضتها من اشرف ما وجد في هذا البلد من النهضات ، بل هي اكبر فائدة واعظمها ضماناً للتقدم الحيوي المطلوب » . فان الجامعة تخرج رجالا مفكرين ، ذوي قوى ابداعية وذوي معرفة ، بدل « فابريكة الموظفين » الذين يخرجهم لنا ذلك النوع من التعليم .

غير ان التعليم لم يكن كل ما تحتاجه مصر . كتب لطفي في مقال بعنوان « الحالة الحاضرة » : « ليس كل ما يلزم لترقي حالتنا الاجتماعية هو التعليم واصلاحه ، بل هناك امران آخران لا يصح اغفالهما . اولهما : العلاقات العائلية التي يجب على الكتّاب ان يصلحوها بكل ما لديهم من اساليب الانتقاد . والثاني : هو الفضائل العامة التي يدخل انماؤها والحث عليها في واجباتهم ايضاً ؛ وهي العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة » .

وقد عنى بعث المجتمع هذا رفع مستوى المرأة ، اذ آمن لطفي ان لا اصلاح للمجتمع ما دام نصفه جاهلا . وآمن مثل صديقه قاسم امين بضرورة تعليم المرأة . وحينما عين مديراً لجامعة القاهرة فتح ابوابها امام النساء . ولما كان بعد شاباً اقنع والده بأن يرسل بناته الى المدرسة .

كان اصلاح اللغة العربية من السبل التي سلكها لطفي لخلق الوعي القومي . فقد اعتقد انالعربية التي لم تتبدل منذ ايام العباسيين لا تستطيع ان تنقل آراء وافكارا جديدةللشعب ، لان الشعب لا يفهم المصطلحات الحديثة . لهذا اصبح لطفي مبتدعاً لغويا ، وابتكر اسلوبا جديداً متطوراً قادراً على التعبير عن الافكار السياسية والاجتماعية الحديثة . وكان هـذا العمل احد خدماته الكبرى كمصلح اجتماعي ، من حيث انه اغنى اللغة العربية وجعلهـا اداة مطواعة للاستعمال الجاري في نطاق فهم الرجل العادي .

واتجهت حملات لطفي السياسية في « الجريدة » في مجريين مهمين : اولهـما في طلب الاستقلال التام ، فاتهمه الشيخ علي يوسف بالخيانة ، وخشي لطفي على نفسه من الاعتقال. وثانيهما في طلب دستور من الخديوي ، حتى اصبحت صرخة « الدستور يـا افندينا » شعاراً للحركة الوطنية . الا ان لطفي كان في الحقيقة اكثر اهتمامـاً من ذلك كله بزرع بذور حب الفضيلة في المصريين ، اذ كان فيلسوفاً ومصلحا اجتماعيا اكثر منـه سياسيا . كانت له تصورات عن المجتمع المثالي الذي شعر ان المستقبل سيحققه ، ولا بد أن مطالعاته في الفكر السياسي في الغرب حفزت هذه التصورات . الا انها كانت متأثرة اكثر بمطالعاته لارسطو . سيكون مجتمع المستقبل نتيجة نهائية لعمليـة الاصلاح والتعليم حينما ينتصر « الرجل الطيب » . وتحت عنوان « الرجل الطيب » كتب : « ولست الا شديد الوثوق بان الطيب يغلب الخبيث ، وتصل الانسانية الى كمالها الوجودي الممكن ، فيكون غالب الناس هو ذاك الرجل الطيب الذي لا تزدهيه القوة ولا يحمده الضعيف ... انمـا النفس الانسانية طاهرة باصلها ، فلا يتكلف الذي يريد ان يكون رجلا طيبا الا ان يحاسب نفسه على الشر ، ويلفتها الى فعل الخير » .

والى جانب نشاطه كرئيس لتحرير « الجريدة » وكعضو في حزب الامة ( وهو اول حزب سياسي في مصر ، تأسس ١٩٠٨ ) ثم كرئيس لذلك الحزب ، كان لطفي على اتصال وثيق بسعد زغلول وبالوفد . كان واحداً من مؤسسي الوفد الخمسة ، وكان في الحقيقـة مفكرهم النظري ، وذهب مع سعد الى مؤتمر الصلح في باريس . ولكن لطفي وجد متعته الحقيقية في وظيفته كمدير لجامعة القاهرة . ففي ذلك العمل كان يستطيع ان يمارس الحياة

الفكرية والتأملية التي احب ، كما كان يستطيع ان يوجه جيلا جديداً كاملا نحو الاهداف الصحيحة . عمله هذا هو الذي اكسبه اللقب الحنون « استاذ الجيل » . ومع ان لطفي استلم الوزارة ثلاث مرات ، الا انه كان في كل منها يعود الى الجامعة بسرعة وارتياح ، لان الجامعة عنت له « الاخلاص للعلم والتضحية في خدمته ، والاستقلال في الرأي والفكر والعمل » . وبسبب توكيده على قيمة استقلال الجامعة عن الحياة السياسية استقال من وظيفته في ١٩٣٢ ، حينما فصلت وزارة المعارف الدكتور طه حسين من وظيفته كعميد لكلية الآداب واعطته وظيفة اخرى دون ان تستشير مدير الجامعة . فقد اعتبر لطفي ذلك الاجراء اعتداء على تقاليد الجامعة واستقال احتجاجا . وقد عاد الى المنصب نفسه في ١٩٤١ .

ولما تخلى لطفي عن الحياة العملية وتقاعد من تلقاء ذاته تابع تكريس نفسه لمؤسستي الجمعية الخيرية الاسلامية والمجمع اللغوي . وقد ظل رئيسا لكل منهما حتى وفاته .

تلك هي الصورة العامة لاستاذ الجيل : رجل له كل الصفات التي وصف الرجل الطيب بها ، صفات العدل والكرم وحسن العشرة والشجاعة . ولعلي استطيع ان اقدم صورة اخرى له ، الصورة الخاصة التي ترتسم في ذهني له ، ليس كمرب وباحث فحسب بل ايضاً كعم حنون مرح : واقدم ذكرياتي عنه مداعبته لي بقوله اني لست ابنة امي لانها بيضاء البشرة وانا سمراء ، واني في الاصل « برنسيس حبشية » خطفت وبيعت فاشتراها والداي. لا اذكر رد فعل تلك القصة عندي ، ولكن لا بد انها اطربت كلا منا : فان « برنسيس الحبشة » اصبح الاسم المحبب لي عنده . وعلى خلاف معظم الرجال الذين يتحدثون الى الصغار بعدم اكتراث لم يكن هو يفعل ذلك قط ، بل كان يتحدث دائما الى الصغار كأنهم مبعث اهتمام عنده . وقد كانوا كذلك في الواقع : كان يبادرني ، في كل زيارة نقوم بها له بقوله : « احكي يا ستي » ، وكان علي ان افكر بسرعة بشيء اقوله ، شيء يحمله على رواية احدى اقاصيصه التي كانت تتنوع بين جحا وارسطو . وكان هذا هو شعور كل الاطفال نحوه . وكم كان يلذ لي سماع ابن اخي ، الطفل في الخامسة ، يقول بجد انه سيزور «جده الباشا» : لقد عرفنا ، منذ ان كنا صغارا ان «عمو لطفي» كان رجلا شهيرا ،

ولكننا بلا مبالاة الاطفال هزئنا بالاسماء الطريفة لكتبه ، وخاصة « نصائح ارسطوتليس لابنه نيخوماخوس» . فقط عندما التحقت بالجامعة وجاهدت في فهم ذلك الكتاب نفسه نما فيّ الاهتمام بعمي كشخص مستقل وليس كمجرد عم .

كان تفاؤله يدهشني . كنت وصديقة لي نحدثه مرة في حدائق النزهة بالاسكندرية ، واذ كنا في السن الذي يحاول المرء فيه ان يتهكم ويلذع قالت صديقتي ان الجيل الجديد جاهل وان الجيل القديم كان اكثر اثارة من الجيل الحاضر الراكد . ولكنها قاطعها قائلا : ان المستقبل افضل دائماً ، فان الحياة تطور وسير مستمر نحو الاحسن ، وكل جيل خير من الذي سبقه واكثر معرفة ، فان الماضي لم يكن قط ما اراد الناس ، وانما المستقبل هو الذي يحفل بالآمال والامجاد . والذين هم في سن الشباب معتادون على سماع تحسرات الشيوخ على « ايام العز الماضية » ، ولذلك كان هذا التفاؤل في رجل كبير وحكيم مثله مدهشاً لي ، ولكني لم انسه قط . وربما كان اهتمامه بالشباب ناتجاً عن هذا الاعتقاد بان المجتمع المثالي الذي حلم به وعمل له انما سيتحقق على ايدي الاجيال القادمة .

صاحب تفاؤله ايمان بسلطة العقل . لم يكن لطفي في يوم من الايام زعيماً شعبياً ، لانه كان يخاطب العقول ولم يخاطب العواطف كما كان مصطفى كامل يفعل . ولكنه لم يكن بامكانه ان يفعل غير ذلك ، لان الدولة المثالية في تخيلاته كانت تلك التي يسيطر العقل عليها . وطبيعي ان يؤمن المفكر بنظرية كهذه ، ولكن الى جانب مواهبه الفكرية كانت لديه مقدرة خارقة على الابتعاد بنفسه عما حوله ، مما سهل عليه رؤية الاشياء بموضوعية اكثر من سائر الناس . وقد ظهرت هذه المقدرة مرة في ظروف غريبة : قبل خمس عشرة سنة كان عليه ان يجري عملية خطيرة ، ولم يستطع الجراح ان يخدره تماماً لكبر سنه ، ولذلك كان عليه ان يقاسي ألماً كبيراً . غير ان الجراح ( وكان امريكيا ) جاء والدي بعد العملية وعلى وجهه معالم العجب : لقد لاحظ خلال العملية ان لطفي لا يبالي بالالم ! واستعلم الجراح عن ذلك ، واخبر ان لطفي كان يفكر باشياء اخرى ولذلك لم يشعر بالالم : لقد ابتعد بنفسه كلياً عما حوله فلم ينل الالم منه .

وكان الكرم من اعظم فضائل لطفي . لما انعمت عليه الدولة بجائزة ( عدة آلاف من الجنيهات ) وبوسام مذهب ، انهمرت عليه رسائل طلب الاحسان . فاعطى الحوالة بالمبلغ وتلك الرسائل الى ابنه وطلب منه ان يقسم المبلغ على اكثر الطالبين احتياجاً ، وكان

التكريم الذي ناله من الدولة هو الجائزة التي اعتز بها . ولكن كرمه لم يكن ماديأفحسب، بل كان كرماً في العقل والقلب ايضاً .وهناك صحافيون صغار ومبتدئون كثيرونيتذكرون الاستقبال الوديّ الذي كانهذا الرجل المسنّ والعاجز يلقاهم به والمساعدة التي كانيقدمها لهم ، مع انه كان يرفض اجراء المقابلات مع الصحافيين الكبار . ويمكنني ان استمرّ واقدم امثلة لا تحصى على فضائله، غير انه ما كان ليحبّ ذلك . فقد كان رجلا متواضعاً بالفعل ، والتواضع من صفات العظماء الاصيلة . وقد اقـترحت منذ سنوات ان اكتب رسالتي للدكتوراه عنه ، ولكنه رفض الاقتراح قائلا انه ليس مهما كفاية ، وانني قد لا اكون موضوعية في بحثي عنه بسبب عاطفتي نحوه ، مما يهدد البحث بـان يخسر الصفة العلمية المطلوبة .

عدت الى مصر في الصيف الماضي لقضاء العطلة . وكنت اذهب الى الاسكندريـة كل اسبوع لرؤيته . وكان هو ، بقامته النحيفة وعباءته فوق ثيابه وسبحته بين اصابعـه الطويلة ، يجلس صباح كل يوم في قرنته المنزوية في فندق بوريفاج محاطاً باصدقائـه . وكان حديثهم جدياً احياناً وهزلياً احياناً اخرى ، ولكنه كان ممتعا دائما وأخاذاً في معظم الاحيان . قد يتناول فروسية العرب ، او تعقد بيت شعر ، او قصيدة جديدة ، او زجلا قديما ، او ذكريات من الماضي . وكانت هذه الذكريات اكثر مـا يثير اهتمامي ، بحكم درسي لتاريخ مصر في القرن الماضي . وما كنت اثير قضيـة حتى يتكلم ويتكلم حتى لا يلفظ نفَسه، فيعبس ويداعب اصابعي بسبحته ويقول : « انت تعبتيني » . ولكنه،وبعـد دقيقة فقط ، يتابع ذكرياته ، وبين حين وآخر يقاطعه احد اصدقائه مضيفا الى كلامـه جملة عابرة ، ثم يستأنف الجميع المناقشة .

لم يكن لطفي عبقريا ولا فيلسوفا عظيما . بل لم يكن مبتدعا . ولكنه كان رجـلا عظيما في انسانيته ، وفي ادراكه جوهر المشكلة ، وفي موهبته ككاتب ومربّ . لقد اسهم في نقل فلسفة اليونان ومعارف الغرب الى مصر ، وحاول ان يكشف عن عوامل ارتقاء المجتمعات وانخفاضها ليعثر لمصر على عوامل انبعاثها . وجعل من الصحافة مهنة محترمـة واداة للاصلاح الاجتماعي . والهم الذين اتصلوا به الولاء والحنان . لقد اعطى مصر الكثير ، وكافأته مصر احتراما وتوقيراً .